في أماكن متفرقة من المرأب الكبير، سطوحُها تَلْمع في أضواء المصابيح. يلمح رجالاً يتخاطفون كالأشباح، يخترقون الفراغات، في الساحة الواسعة، بين باب وآخر، يمشون مُطْرقين، لا يلتفتون يمنةً ولا يسرةً، خطواتُهم عجلى، كأنّ شياطين العالم السفليّ تطاردهم. يلمح كلباً يشمشم أسفلَ الجدران، وبين صفوف الحافلات، يبحث عن شيء يؤكل. يلمح ثلاثة هياكل (أتراه يحلم!؟) تجلس على الأرض، على مسافة قريبة من المنصة التي ينام عليها: رجلٌ، وامرأةٌ، وصبيٌّ. الأشخاص الثلاثة يجلسون في سكون، كلّ واحدٍ منهم يقبع في زاوية من مثلثٍ وهميٍّ، تتوسطه كومةٌ صغيرةٌ من الأمتعة، وهم يجلسون في وضع متماثل: فكلٌّ منهم يجمع ساقيْه إلى صدره، قدماه تستقران على الأرض متجاورتيْن، ورأسه يستريح فوق ملتقى الركبتيْن الملمومتيْن، كأنّهم يؤدّون طقساً من الطقوس. الأشخاص الثلاثة يشعرون بوجوده على مقربة منهم، إلا أنّهم لا يكترثون به. لا يدري كم مضى من الوقت وهم على جلستهم الساكنة تلك. تُتعبه الأضواءُ، فيُطبق جفنَيْه. تختفي الهياكلُ الثلاثة، وصفوفُ الحافلات من أمام عينيه. تبقى أطيافُها تموج في رأسه، ويبقى الصمتُ تخترقه الخطوات العجلى للأشباح المتخاطفة، في فراغ المحطة.

يوشك أن يغفو، غير أنّه يسمع لهاثاً، وحسيسَ أنفاس تلامِس لحمَ وجهه، حارّةً ونديّةً. يفتح جفنَيْه فيفاجأ مرعوباً بوجه الكلب ـ الذي كان يشمشم أسفلَ الجدران ـ معلّقاً فوق رأسه. (لا، ليس ما يعيشه حلماً، بل كابوس مريع!). يرجّه رعبُ طريدةٍ محاصَرَةٍ توشك أن تتناوشها المخالِبُ والأنيابُ. يرنو ضارعاً إلى الهياكل الثلاثة، يراها تتململ قليلاً، لكنها لا تفارق أماكنها لنجدته. يتكلم بصوتٍ متحشرج، يحاول أن يلفت انتباه الرجال المتخاطفين بين الأبواب، ولكن لا أحد منهم يتلكأ في سيره العجول، ليرنو إليه، في حين يظل الرجلُ والمرأة والصبيّ على جلستهم الساكنة ينتظرون!

بغداد

حمّام الرياض

أحمد السقالي

في إحدى جهات المدينة القديمة يقع حمّامٌ بلديّ كبير، وفوق باب الواجهة عُلِّقتْ لوحةٌ كتب فيها بخطٍ بارز: «حمام الرياض للرجال والنساء»، وبخطٍ أقل بروزاً:

«٦ دراهم.

ـ النساء: من ٧,٠٠ صباحاً إلى ٥,٠٠ مساءً.

ـ الرجال: من ٦,٠٠ مساءً إلى ١٢,٠٠ ليلاً».

يتوزّع المجال الهندسيّ للحمّام إلى غرفتين واسعتين: واحدة ساخنة في الأقصى لا يَفْصلها عن الفرن الخاص بتسخين خزّان الماء إلا جدارٌ من الاسمنت المسلّح؛ وثانية متوسطة الحرارة واسعة الأرجاء، فيها صنابيرُ المياه الباردة والساخنة، ومرحاضان. وفي ركن من فناء الحمّام، حيث يتكوّم عُرام الحطب، قاعةٌ صغيرةٌ مخصّصة للصلاة. أما مدخل الحمّام فقد صُمِّم على شكل قاعةٍ للاستقبال، فيها مقاعد ثابتةٌ وخزاناتٌ لوضع أشياء رُوّاد الحمام. وفي زاوية ينتصب مسندٌ خشبيّ ورفوفٌ على شكل دكان صغير لبيع كل لوازم الاستحمام كالصابون والشمبوان والموسى ومعجون الأسنان وفوطات ومشروبات لتبريد أجسام الخارجين من الحمّام.

وباستثناء أيام الأعياد الكبرى، فإنّ الحمّام يشتغل طوال السنة من طلوع الفجر إلى منتصف الليل، ويَشْهد إقبالاً كثيفاً مساءاتِ أيام الخميس على الخصوص وليالي الأعياد الدينيّة وعُطَلِ العمّال الكادحين. أحياناً يعرف الحمّامُ حركةً غيرَ عادية حين تستأجره عائلةُ إحدى العرائس قبيْل «الدخلة»، فترافق العروسَ نساءُ الأقارب والجيران وفتياتُهم، ويتحوّل الحمّامُ إلى مسرح لعرض الأزياء والصفقات وعقد الخطوبات الأوليّة وترويج أخبار الناس والتباهي بالأشعار والزغاريد. وفي الأيام العاديات تَستغلّ النساءُ فرصةَ الذهاب إلى الحمّام لإزالة الرُّضاب من رؤوسهنّ، أو تنقيةِ أجسادهنّ من أدران الحيض، أو إزالةِ وسخ الجَنابة ـ وهو شأنُ الرجال أيضاً. وغالباً ما تصطحب النساءُ أولادهنّ لغسلهم والتعريف بهم.

وبسبب الإقبال الكبير على الحمّام، يحرق «الحماشي» يومياً طنّيْن من الخشب الذي يَدْخل عبر البوابة الخلفية، وتتجنّد النساء المعوزات لحمله من الغابة المجاورة، كما يتحصّل عليه الحاج الطيِّب عن طريق معرفته القديمة بأحد أعضاء مكتب المجلس البلديّ.

مع انبلاج فجر الجمعة غادرتْ «مناش» منزلَها الواطئَ المطليَّ بالنيلة الصفراء في اتجاه الحمّام، ومِنْ ورائها ابنتُها سعاد. مناش أرملة في الخمسين، مات زوجُها أيام الوحم قبل أن تضع ابنتَها الوحيدةَ ذاتَ الخمسة عشر خريفاً التي تتبعها كالعادة كلَّ صباح إلى مكان العمل. سعاد، هكذا كانت أمُّها في الصغر: مكتنزةَ الجسد، وجهها مدور، وجنتاها ورديتان لحميتان، عيناها واسعتان عسليتان، وشفتاها ناضحتان بالدم.

رويداً رويداً، تتنسم الأمُّ وابنتَها عطرَ الصبح إلى أن تدركا الحمّام. تفتح الأمُّ البابَ وتتجرّد مباشرةً من جلبابها الأخضر، الذي تعلّقه البنتُ وراء المسند حيث تجلس وتتفقد ما بداخل «التيروار» وترتِّب مبيعات الحمّام من مستلزمات الاستحمام، فيما تتجوّل أمُّها بين المَرَافق تتفقد اشتغالَ المصابيح وصنابير المياه الساخنة والباردة، وتحصي الدلو والقراقيب حتى تتأكّد من أنّ الحمام كلَّه قد أصبح جاهزاً لاستقبال الزبونات.

تفتح الباب الصغير الذي يفضي إلى الفناء. تجده، هناك عند خزان الماء: شاب أعزب، هندامه طويل ممتلئ، عضلاتُه مفتولة، وجهه أسمر يكاد يتفجّر دماً... وهو يدفع بالخشب من فوهة الفرن إلى ألسنة النار المستعرة. أحسنّ بمناش تفتح البوابة وتُطِلّ عليه فقال:

ـ صباح الخير، للا مناش. هذه هي القطع الأخيرة، وسأمشي.

ـ إذنْ، لا تنسَ أن تغلق الباب وراءكَ.

ردت عليه، وعادت إلى الداخل من حيث أتت، لتستقبل أولَ زبونةٍ وثانية وثالثة... وفي حدود السابعة من الصباح كانت قاعةُ الاستقبال نصفَ ممتلئة تقريباً بالإناث وهنّ يتحركْن وسط القاعة، ينزعن الثياب. ظهرتْ بينهنّ بكماءُ كانت تتجاذب معهنّ حواراتٍ ميميةً مقتضبة. ثم دخلتِ الواحدةُ تلوَ الأخرى، وأخذن أمكنتهنّ في الحمّام كلُّ واحدةٍ بحسب ما يناسبها من حرارةِ مكانٍ أو اتّساعٍ أو تهوية.

وبينما كان الحمّام يستدخل المزيد من النساء المختلفاتِ الأشكالِ والأحجامِ، وفي أيديهنّ قفاتٌ ومحافظُ، ويَسْحبن أطفالاً وطفلات، كان الحاج الطيب جالساً عند الخياط المقابل يحتسي معه كؤوسَ الشاي، يتجاذبان أطراف الحديث، وهو يراقب باب حمّامه عن كثب. وما إنْ بلغت الساعة الحادية عشرة حتى كان الحمّامُ يعجّ بالنساء والبخار والضجيج.

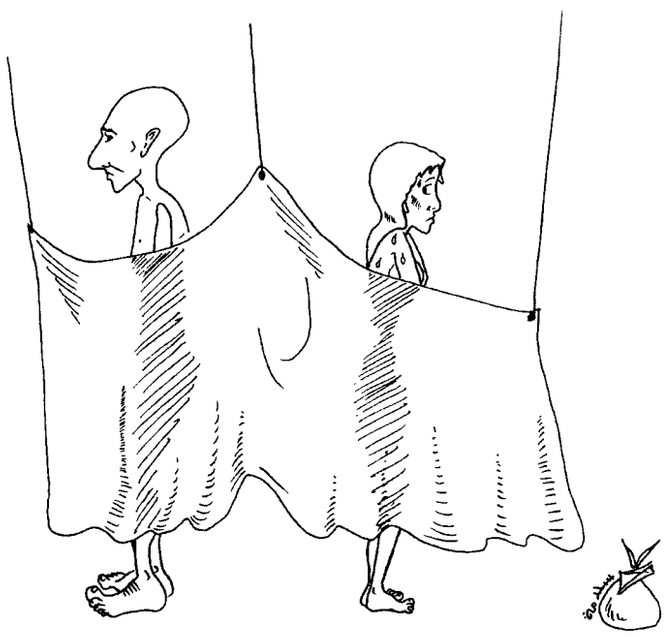

داخلُ المرافق أشبهُ ما يكون بلَوْحاتٍ فنية: رسومات حيّة متحرّكة، أجسام لبنين عراة، وبنات عاريات منهنّ مَنْ يرتدي التبّانات الواسعة والضيِّقة، ومنهنّ التي لا تضع حمّالات الصدور فتتدلّى النهودُ بمختلف معماراتها وألوانها.. تفاصيل مثيرة لحساسيّات من نوع خاص. حركات حثيثة بين مرافق الحمّام، بعضُ النساء يحملن الدلو، بعضُهنّ يحكّ ظهرَ بعض، يضعن الصابون الرومي والبلديّ، يغسلن شعورهنّ بالشمبوان والغاسول، يَسْكبن الماءَ الرطب

على أجسادهنّ فيتدحرج رقراقاً كاللجين. في ركن، تبدو البكماءُ في حركة دؤوبة تسابق الزمن، تمدد امرأةً على بلاط الحمّام، تدلكها وتفرك عضلاتها، تحكّ لها ظهرَها وبطنَها وصدرَها وما تحت تبّانها، تضع عليها الصابون، تملأ الدلو وتغسلها. وما إنْ تنتهي منها حتى تَشْرع في امرأة ثانية بالنشاط نفسه. البكماء من عادتها أن تغسل عشرين امرأة يومياً. ازدادت حرارةُ الحمّام وخريرُ الصنابير واللغط والبخار. الممرّ بين القاعة الساخنة والقاعة المتوسطة الحرارة يَشْهد حركة كثيفة: امرأة تهرع بردفيها المكتنزيْن نحو دلوٍ فتتعثر وتسقط أرضاً، أخرى في زاوية قد ولّتْ وجهها صوب الحائط تحلق إبطيها، وأخرى في المرحاض تَحْلق عانتها. سحاق هنا، مناوشات طفيفة هناك... «ومناش» تَطْرق يديها، داعيةً المستحِمّاتِ إلى الإسراع في الخروج من الحمام.

انسحبت البتولُ تدريجياً إلى قاعة الاستقبال، محمرةَ الوجه لفرط الحرارة والحكّ. ما أجملها! سحبتْ فوطةً ووضعتْها فوق رأسها المبلّل، ثم توجّهَتْ إلى فناء الحمام مخترقةً البوابةَ الصغيرةَ قاصدةً الحجرةَ المخصصةَ للصلاة.

البتول ٢٥ سنة، معتدلةُ القامة، بيضاءُ، واسعةُ العينيْن، ممتلئة الأطراف، جِيدُها يشبه جيدَ رئيفة لطفت، صدرُها رحبٌ عليه ذهبٌ وجوهرُ وحدائقُ وردٍ وياسمين وتفاحتان. جسمها من مغناطيس؛ كلُّ مَنْ يراها يتمناها.

عَرَفَها الحماشي مصادفةً ذاتَ فجر، أوّلَ مرّة وطئتْ قدماه الحيَّ النيليَّ الذي تسكنه مناش. فَجْرَئذٍ، كان قد أضاع مفتاح الباب الخلفيّ للحمام، ولما أراد أن يستعيره من مناش، طَرَقَ باباً غيرَ بابها، فإذا بالبتول تُطلّ عليه فتخترق حياته مرةً واحدة.

ـ اسمحي لي، هل هنا تسكن للا مناش؟

ـ لا، يا أخ، ها هي ذي لونها أزرق..

ـ اسمحي لي إذا..

ـ لا، ليس هناك مشكل. اطرقْ بابها، عسى أن تجدها إنْ لم تكن قد غادرتْ.

كانت هذه الكلمات القليلة كافيةً لربط أواصر العلاقة بين البتول والحماشي. وستتوطد العلاقةُ شيئاً فشيئاً حتى تدخل في نسيج حياتهما اليومية: فهو سيزورها سرّاً في منزلها، وهي ستتفقده من حينٍ لآخر في الحمّام عند خزّان الماء حيث الحجرةُ المخصصةُ للصلاة.

مناش والغسالة البكماء لا تعرفان التوقف عن الحركة، تجمعان الدلو والقراقيب، تنظّفان مرافق الحمام، وبالكراطة يزيحان الأوساخَ وبقايا أشياءِ الحمام المستعملة من فتحة قناة صرفِ المياه... تتسلمان قطعاً وأوراقاً مالية، ولا تجلسان إلاّ قليلاً.

وسعاد، بنت مناش، من وراء منبرها التجاريّ ترتّب مبيعاتِها في نشاطٍ وحيوية، وتسلّم الزبونات ما يطلبْنَه، وتتسلم بدورها أوراقاً وقطعاً نقدية.

كانت سعاد، كأية فتاة بالغ، ترغب في اكتشاف الجنس الآخر. وقد حرّضتْها رغبتُها الجامحة على الاقتراب مِنْ أقربِ رجالِ محيطها الصغير. والحماشي، الذي أَلِفَها وأَلِفَتْه، كان يدلّعها دلعاً فيه شبقٌ وتهييج. قال لها ذات مرة:

ـ هؤلاء النساء لا يَشْبعن من النكاح. إنّهنّ هنا دائماً في الماء، مثل الضفادع.

وهي تَفْهم ما يقول. وكان يختلس أحياناً ضَرْبَها في مؤخرتها حين تمرّ من الفناء إلى الدكّان عبر البوابة الصغيرة، وهي لا تمانع.

وفجأةً انقطعتْ عن المجيء إلى دكانها.

مضت أيام وأيام، ومتجرُ سعاد يتيمٌ لا يَجْلب الأنظار كما كان من قبلُ. كانت مناش أو البكماء تمرّان من حين إلى آخر وراء المنبر الخشبيّ لتزويد الزبونات بالمبيعات. سألتْ إحدى النساء مناش:

ـ ما لي لا أرى الحجلة ابنتك؟ أترى زوّجْتِها، وأنا لا أعرف شيئاً؟

ولم تفاجَأْ مناش؛ فقد كانت تتوقع أسئلة النسوان عن ابنتها، ولاسيما بعد فِعْلتها. وفي قليلٍ من الحرج أجابت:

ـ اسكتي يا أختي، لقد نزلتْ بي مصيبة. تصورّي فتاة تصير حاملاً دون أن يمسّها رجل!

ـ وكيف ذلك؟ (استفهمتْها الزبونةُ بمزيدٍ من التطفل).

ـ لقد اصطحبتُها إلى طبيبٍ، فقال لي إنّ المنيّ يمكن أن يَنْتقل بطرقٍ كثيرةٍ، لا عن طريق النكاح فقط.

وما كادت تنتهي من كلامها حتى قاطعتْها المرأةُ مستدركةً:

ـ نعم، نعم، لقد حَدَثَ في مولاي يعقوب أنْ حملتْ إحدى الفتيات بمجرد أنْ لبستْ «سليپ» أخيها ـ الله يحفظ!

ـ وكان السليپ ملطّخاً بالحيوانات المنوية.

ثم أردفتْ مناش:

ـ بل إنْ إحداهنّ قد حملتْ لأنّها نامت عاريةً في سرير ساخن!

لم يمرّ على هذا الحوار ليلتان حتى شاع في المدينة كلّها أنّ بنت مناش صارت حاملاً بسبب امتصاص فرجها حيواناً منوياً بقي على بلاط الحمّام من حصة الرجال!

كل الناس صدّقوا، إلا أمها مناش التي اكتوت بنار الفضيحة. وكان لذيوع النبإ أثرٌ سلبيٌّ على زبائن الحمام، إذْ قَلّ عليه الإقبالُ. ولاحظ الحاجُ الطيِّبُ ذلك.

حين كان المؤذّن يؤذّن لصلاة العصر كانت جلّ النساء قد غادرن الحمام، وبقيتْ مناش جالسةً إلى المسند الخشبيّ للمبيعات، رأسُها متّكئ على قبضة يدها، وجبينُها مقطّبٌ حزين، وعيناها زائغتان. سرحتْ تفكّر في شكايتها لدى السيد القائد من الحماشي الذي مازال يصول في الحمّام ويجول ويزني مع البتول، وفي الإدارة التي تماطل في خدمة المواطن، وفي مستقبل ابنتها الوحيدة وما برَحِمِها. راحت تستعيد شريط حياتها معها، حتى لَعَنَتْ تلك الليلةَ المشؤومة، ليلةَ استفاقت من النوم على صوت سعاد وهي تتقيأ في المرحاض، فنهضتْ وفهمتْ من الأعراض أنّ ابنتها حامل. وحين تأكدتْ من ذلك باعترافها، لم تتمالك أعصابها فاندفعتْ تضربها وتجرّها من شعرها وتلطم فخذيْها وخدّيْها وتصيح: «يا فضيحتي يا ويلتي». وفي حركةٍ آليةٍ انتزعتْ جلبابها من المشجب، فارتدته، وأخذتْ منديلَ رأسها، ثم انطلقتْ نحو الحمّام.

كان في المنزل المجاور، منزلِ البتول، ضوءٌ باهتٌ يتسرّب بين فتحات الباب.

ـ ماذا تنوي الآن أن تفعل يا الحماشي؟

هكذا باغتتْه مناش، وهو يلقي بقطع الخشب من فوهة الفرن. فأجابها دون ارتباكٍ:

ـ لا شيء، للا مناش... الرجاء في الله. لقد بَكّرتِ اليومَ، فهل أُصيبْتِ بالأرق؟

ـ لا، لقد أصبتُ بمصيبتكما، أنت وسعاد، ويجب عليكما أن تجمعا أشياءَكما عاجلاً..

وقاطعها الحماشي، محاولاً الحسمَ في الموقِفِ، بعد أنْ فَهِمَ قَصْدَها:

ـ انظري، للا مناش، إذا كانت سعاد قد حَمَلَتْ من الحمّام فهذا قَدَرُها. وإذا كان غرضُكِ أنْ تلصقيها في أحد، فابحثي عن غيري، لأني لا أفكّر في الزواج نهائياً.

لم تضفْ مناش شيئاً بل فضّلتِ الانسحابَ من الفناء والقيامَ بعملها الاعتياديّ داخل مرافق الحمّام. حتى جاءت الغسالة البكماء، فانصرفتْ هي إلى مقرّ القيادة لتنتصب في الطابور مع المواطنين والمواطنات، ولتعود في اليوم الموالي برفقة ابنتها ليحقّق معها السيدُ القائد.

دخلتْ سعاد إلى الحمّام فجأةً، وقطعتْ على أمها حبلَ تفكيرها:

ـ أمي، يجب أن تذهبي معي إلى القيادة. هذا ما أخبرني به مقدّم الحومة.

ارتدت الأمُ ذلك الجلبابَ الأخضر وانصرفتْ، تاركةً وراءها البكماءَ، ترتّب الدلو والقراقيب، وأوصتها بإغلاق الحمّام.

عند القائد: مكتبٌ فخم، وكرسيٌّ متحرّكٌ آخر موديل، وصورةٌ كبيرة لرمز البلاد والسيادة. كان هناك الحاج الطيِّب جالساً إلى جانبه. لما دخلتْ مناش ومن ورائها ابنتُها، هرعت هذه الأخيرةُ إلى الحاج وانحنت على يده تقبّلها. قال لها:

ـ مَنْ فَعَلَ لكِ هذا؟

ـ الحماشي، يا سيدي الحاج.

ـ وأين؟

ـ في الحمّام يا سيدي الحاج، جَرُّني إلى بيت العبادة.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثم تدخّل السيد القائد، فأخبر مناش أنّ الحماشي يتبرأ من التهمة المنسوبة إليه، وأنّ الأمر يتطلب إحضارَ تقريرِ الطبيب الشرعيّ الذي يُثْبت أنّ الجنين هو جنينه، وأنّه في وقتنا الحالي لا يمكن إلقاءُ القبض على أحدٍ ما لم تَثْبتْ إدانتُه.

حين كان السيد ممثّلُ السلطة يتكلّم، لم تكن مناش تشعر سوى بالرغبة في الانسحاب من تلك القاعة. فهي لم تكن في مستوى الإنصات إلى دروسٍ في القانونِ وحقوقِ الإنسان، بقدر ما هي في حاجةٍ إلى أبٍ شرعيٍّ للجنين في رَحِمِ ابنتها سعاد.

خوفاً من الحبس، هَرَبَ الحماشي خارج المدينة ولم يترك وراءه أثراً. أما مناش، التي علمتْ بخبر اختفائه، فقد دبَّرتْ أمرَ إجهاض ابنتها.

وأما الحاج الطيب... فقد أغلق حمّامه لمدة شهر ونصف، وعَمَلَ خلال ذلك على إدخال إصلاحات جذرية في الحمّام، فقسّمه إلى حماميْن، وألغى تلك القاعة المخصصة للصلاة، وأصبح يملك حماماً للرجال بمدخله الأصليّ، وحماماً للنساء مدخلُه من الواجهة الخلفيّة.

ازغنغان (المغرب)

هموم صغيرة

محمد الحسناوي

رجلٌ كهلٌ أدخل يده في فمه. أخرج حصاةً ملساء بحجم حبة الملبس، اصطكتْ بها أسنانُه. ألقى بها في بركة الماء ليستريح منها. الحصاة ابتلَّتْ بالماء. ترنحتْ يميناً وشمالاً قبل أن تَسْقط إلى القاع وتستقرّ. صفحةُ الماء تجعّدتْ دوائرَ دوائرَ متتابعةً من المركز إلى الأطراف. دوائر التجعُّدات اصطدمتْ بأطراف البركة قبل أن تَخْمد أو ترتدّ إلى مكان انطلاقها.

قال الحاج عبد الواحد لابنه حامد:

ـ هل ترغب في الذهاب إلى عند أخيك عبد الرحمن؟

أخوه عبد الرحمن أصغر منه بسنةٍ واحدة. وهو ابن الزوجة الثانية للحاج عبد الواحد. ذهبتْ هي وابنها الوحيد بصحبة أُسرة أختها إلى حمّام الشيخ عيسى المعدني الواقع في ريف مدينة «جسر الشغور». حامد ابن الزوجة الأولى القديمة، وهو الآن يمضي وقته عند أبيه أمام الدكان، ينعس فيميل رأسه قليلاً، أو يتمشى ذهاباً وإياباً، أو يقرأ في كتاب أصفر اللون عنوانه: **الأميرة ذات الهمة**، كان قد استعاره من الدكان المجاور.

*

ـ لماذا جئتَ!؟

قالت الزوجةُ الجديدةُ بغضبٍ واضح، مخاطبةً ابنَ زوجها حامداً.

امرأة مكتهلة. سوداء العينين والحاجبيْن. عيناها قادرتان على قذف السخط حين تتحركان يميناً وشمالاً، وحين تتركزان في عينَي المخاطَب، وحين تزمّ شفتيها المتيبستيْن، وتلوِّح بيدها من خلال الأساورِ الذهبيّة، أو تميل بوقفتها: ترتدّ كتفاها إلى الوراء قليلاً، وتتقدم رجلُها اليمنى إلى الأمام. كل ذلك يعرفه حامد. حفِظه عن ظهرِ قلبٍ.